سلطة مقدمي الجهاد بتطوان وشفشاون خلال القرن 16 ميلادي

The authority of the families of Jihad in Tetouan and Chefchaouen during the 16th century

د. فيصل مبرك
المركز الجامعي -بريكة

تاريخ الإرسال: 29-09-2018 - **تاريخ القبول:** 25-01-2019 - **تاريخ النشر:** 05-01-2020

ملخص

بعد تراجع مكانة الدولة الوطاسية خلال القرن 16م، تكونت بعض القوى المحلية ذات النفوذ الروحي والسلطوي، فكانت أحيانا أشبه بالأجهزة الأمنية والعسكرية الجهوية التي حملت على عاتقها مهمة الدفاع عن حوزة الوطن في وجه الاحتلال الإسباني والبرتغالي، ليس فقط في تطوان بل في كل الشمال المغربي. وشكلت هذه القوى في مرحلة ما بؤرة الحكم السلطوي المغلق، الخارج عن سيطرة الدولة أحيانا، لهذا يتساءل الباحث عن هذه الأسر الجهادية، وعن نطاق نشاطها السياسي والعسكري، وامتداد حكمها إلى بعض الأقاليم في البلاد، وموقف الدولة الوطاسية من حراكها العسكري، وكيف اتخذت الأسرة السعدية الجهاد وسيلة لإدعاء الشرعية في المطالبة بحكم المغرب، وإبراز دور مقدمي الجهاد في شل التوسع الاسباني والبرتغالي، وإلى أي مدى ساهم القائمون على وظيفة "الجهاد" هذه في حماية الثغور الشمالية بالمغرب الأقصى خلال القرنين 16/ 17م؟ وما هو الدور الذي لعبته أسرة المنظري في تطوان؟ وفيما تمثلت العلاقة بين آل المنظري وآل راشد في شفشاون الوطاسيين في فاس.

الكلمات الدالة: بني وطاس؛ تطوان؛ الأسر الجهادية؛ المنظري؛ آل راشد؛ شفشاون؛ المغرب.

Abstract

After the decline of the status of the state of BeniWattas in the sixteenth century, some of the local forces have a strong influence, in the form of security and regional military, the task of defending the homeland against the occupation of Spain and Portugal. Not only in Tetouan, but throughout the north of Morocco, these forces later formed the closed government, sometimes outside the control

of the state. For this, the researcher is wondering about these Jihadi dynasties, about their political and military activity, extending their rule to some of the regions in the country, and the position of the BeniWattas state on its military mobility. And to review the role of Jihad pioneers in the face of Spanish and Portuguese expansion, and to what extent did those who contributed to this function "Jihad" in the protection of coastal cities in the Far Morocco during the 16 century? What is the political role played by the dynasty of the theoretician in Tetouan? The relationship between Al-Mandari and Al-Rashed was in Chefchaouen Al-Watasien in Fez.

Keywords: BeniWattas; Tetouan; Jihadi dynasties; Mandhari; Al-Rashed; Chefchaouen; Morocco.

Résumé

Après le déclin du statut de l'État de Beni Wattas au XVIe siècle, certaines des forces locales ont une forte influence, sous la forme d'une organisation sécuritaire et d'une armée régionale, sur la défense de la patrie contre l'occupation espagnole et portugaise, non seulement à Tétouan, mais dans tout le nord du Maroc Ces forces ont ensuite formé un gouvernement fermé, parfois hors du contrôle de l'État. Dans cette contribution, le chercheur s'interroge sur ces dynasties djihadistes, sur leur activité politique et militaire, leur pouvoir sur certaines régions du pays et sur la position de l'Etat de Beni Wattas et sa mobilité militaire. Quel est le rôle politique de la dynastie du théoricien de Tétouan? La relation entre Al-Mandari et Al-Rashed était à Chefchaouen Al-Watasien à Fès.

Les mots-clés: Beni Wattas; Tetouan; Jihad Dynastie; Mandhari; Al-Rashed; Chefchaouen ; Maroc.

مقدمة

إن البحث في مواضيع الثغور في تاريخ المغرب الأقصى خلال القرنين 17/16م له أهمية خاصة، باعتبار ما شهدته البلاد من أوضاع متدهورة وهجمات استعمارية متكررة من

طرف الإسبان والبرتغال، وكذلك الوضع الذي آلت إليه الدولة الوطاسية وعجزها عن حماية البلاد، فبرز النشاط الجهادي لمحاولة تحسين الأوضاع وإعادة هيبة البلاد وطرد المحتل ومحاربة من يتعامل معه، وبرزت أشكال الجهاد في شكل حركات رسمية عسكرية تشرف عليها الدولة السعدية، وحركات جهادية أخرى مستقلة تميزت بالحماس والاندفاع الديني، وتجلى عملها في شن حملات على الثغور المحتلة لتحريرها، لذا أولت الدراسات الحديثة مؤخرا اهتماما بالغا لمعالجة هذه المواضيع التي يتداخل فيها الجانب التاريخي مع التفسير السياسي والديني والسوسيوثقافي.

فرضت الخصوصية الجغرافية نفسها في الشمال المغربي فتكونت القوى المحلية ذات النفوذ الروحي والسلطوي، فكانت أحينا؛ أشبه بالأجهزة الأمنية والعسكرية الجهوية التي حملت على عاتقها مهمة الدفاع عن حوزة الوطن في وجه الاحتلال الإسباني والبرتغالي، ليس فقط في تطوان، بل كل الشمال المغربي، هذه القوى شكلت في مرحلة ما بؤرة الحكم السلطوي المغلق، الخارج عن سيطرة الدولة أحيانا.

وأمام كم معتبر من المادة الخبرية؛ يقف الباحث متسائلا عن ظاهرة عرفت في التاريخ المغربي بالأسر الجهادية، وعن نطاق نشاطها السياسي والعسكري، وامتداد حكمها إلى بعض الأقاليم في البلاد، وموقف الدولة السعدية من حراكها الجريء، وإبراز دور مقدمي الجهاد في شل التوسع الاسباني والبرتغالي، وتعبئة السكان وتهيئتهم وتوعيتهم من أجل المقاومة، وإلى أي مدى ساهم القائمون على هذه الوظيفة "الجهاد" في حماية الثغور الشمالية بالمغرب الأقصى خلال القرنين 16/ 17م؟ وهل يمكن أن نعتبر ثقافة الجهاد أمرا تقتضيه الظروف والاعتبارات تاريخية الخاصة بتلك الفترة؟

1. الجهاد في المخيال الشعبي والثقافي بالمغرب خلال القرنين 16و17

يذكر الدكتور عبد الحق المريني بأن الجهاد في سبيل الله يتحقق بوسيلة النفس أو المال أو السلاح أو حتى باللسان؛ لهذا فقد جاهد أدباء المغرب بلسانهم وقلمهم دفاعا عن المغرب وحريته وعزته ودينه وإسقاطا لأعدائه والمعتدين عليه، وكانت حركتهم الأدبية قوة دافعة يغذيها الإيمان العميق والإحساس بضرورة الانطلاق برسالة النضال والجهاد إلى المغاربة كافة، وزاد في ذلك أنه لقي اهتماما شعبيا بالغا، فواكب الأدب المغربي وخاصة الشعر المغربي "مسيرة المغرب الجهادية" وعبَّر عن ذلكبأن المغرب كان

مسرحا لسلسلة من النضالات المتواصلة التاريخية، وخلد في طي دواوينه ملاحم رائعة لبطولات الجيوش المغربية وبلاءها في ميادين الجهاد والاستشهاد داخل البلاد وخارجها، وارتبط شعر المقاومة ارتباطا وثيقا بحياة المجاهدين في الدفاع عن حوزة البلاد، فلا غرو أن تنسب القداسة للمجاهدين، بل وفي الكثير من الأحيان تتحول بعض النماذج إلى غاية الجهاد، بدلا من أن يكون الجهاد غاية لتحقيق الأمنية الوطنية.

وبذلك كان شعر الجهاد والمقاومة غزيرا ووفيرا وقويا وغزيرا وحيا خياليا ولا صوريا، ملأ بطون دواوين الشعراء وأراجيز الناظمين ومصنفات الكتاب ورسائلهم وكتب المؤرخين وأسفار الأدباء منهم، وأصبحت الكثير من النصوص وثائق تاريخية تحفظ الكثير من تاريخ المغرب الجهادي والنضالي وتخلد ما لم يستطع النثر أن يخلده (المريني، 1997).

أخذت قضية الجهاد العناء الكبير من طرف فقهاء العصر، وحفظت لنا المصادر التاريخية الكثير من القضايا الفقهية والسياسية الخاصة بالجهاد فقد ألف الكثير من العلماء المغرب كتبا في هذه المواضيع بدأها احمد بن قاسم الحجري الملقب بآفوقاي، الذي ولد سنة 1469، له العز والرفعة والمنافع للمجاهدين بالمدافع الذي هو في الأصل لإبراهيم بن أحمد بن غانم الرياش أو الرياس الأندلسي، ترجمه آفوقاي الحجري عن اللغة الإسبانية(مبرك، 2017)، وللحجري كتابا آخر بعنوان رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب أن الكتاب اشتهر بعنوان ناصر الدين عن القوم الكافرين، وعلى الرغم من أن الحجري لم يكن مركزا في هذا الكتاب على فكرة الجهاد من منظور علمي، إلا أنه كان مركزا على الفوارق بين الأمة المسلمة وطوائف النصارى (المريني، 1997).

أما عبد العزيز الزياتي المتوفي 1055هـ/1646م الذي جمع لنا في كتابه، الجواهر المختار فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، ناقش فيه قضايا وقعت في عدة أقاليم بشمال ووسط المغرب الأقصى (تازة، مكناس، فاس)، وهي تعكس بوضوح واقع المجتمع ومشكلاته وانشغالاته، ومن أهم تلك القضايا مايخص تفاصيل الحرب والجهاد، إلا أنه كتاب عام لم يختص بالنوازل الجهادية فقط(الزياتي، 2013).

أما عبد الهادي التازي بن عبد الله بن علي الحسني التازي السجلماسي المتوفي سنة 1056هـ/ 1655موهو من أعلام مدغرة، اشتهر بالعلم والصلاح حيث بذل جهدا كبيرا من أجل توعية المواطنين،فألف كتابا في موضوع الجهاد سماه فلك السعادة في فضل

الجهاد والشهادة، بينما محمد بن علان بن إبراهيم المكي المتوفي 1057هـ/ 1666م فقد ألف كتاب:مفاتح البلاد في فضائل الغزو والجهاد.

أما خلال القرن الثاني عشر للهجرة فقد ظهر أبو الحسن علي بن محمد الأندلسي التطواني المتوفي سنة 1120هـ/ 1708م بمؤلفه المعنون بـ: أربعون حديثا في فضل الجهاد وشرحها، وقد طبع هذا الكتاب مع مجموع رسائل بدار الكتب العلمية في بيروت سنة 1906 (بن محمود، 1482هـ).

كانت أوضاع المغرب في مطلع القرن 10هـ/16م في حالة من الضعف والتجزئة، فالوطاسيون[1] الذين آل إليهم الحكم في فاس في الربع الأخير من القرن 9هـ/15م قد عجزوا عن توفير الأمن في البلاد والدفاع عنها وحماية شواطئها من الغزو الأجنبي (كريم، 2006)، مما أدى إلى انتشار الفوضى والفتن وتجزئة المغرب إلى وحدات سياسية تحت زعامات قبلية أو دينية أو مجالس محلية مستقلة تماما عن الحكومة المركزية بالعاصمتين فاس ومراكش (بن خروف، 2006)، ولعل من أهم شواهد التجزئة السياسية؛ ظهور الكثير من الإمارات في المغرب الأقصى كإمارة بني راشد بشفشاون وإمارة آل المنظري في تطوان وآل عبد الحميد في القصر الكبير وآل رحو في دبدو وغيرها من الإمارات المستقلة (بن خروف، 2006). وعلى العموم فإن الأوضاع السياسية التي كان عليها المغرب عند مطلع القرن السادس عشر ميلادي تدل في مجموعها على مدى حاجة البلاد إلى قوة ضابطة متغلبة، تعمل على كبح استفحال وتزايد الفتن الداخلية والأخطار الخارجية المتمثلة في الاحتلال الأجنبي للسواحل.

2. الجهاد أساس الشرعية في الدولة السعدية

في هذه الأثناء بزغ نجم الأشراف السعديين الذين انتدبتهم القبائل السوسية لتولي مهمة الدفاع عن البلاد ضد هجمات النصارى، وتنظيم القوات الجهادية وطرد المحتلين وذلك في ظل ضعف السلطة الحاكمة في فاس عن حمايتهم (مبرك، 2017)هذا

[1] فرع صغير من بني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناتة البربرية، شغل أوائلهم مناصب سامية في الجيش والإدارة بما في ذلك من الوزارة والوصاية في عهد المرنيين وفي سنة 1471 نجح محمد الشيخ الوطاسي في تأسيس الدولة الوطاسية، انظر، إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ من بداية المرنيين إلى نهاية السعديين، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1998، مج2، ص194.

الضعف الذي عبر عنه أبو القاسم الزياني: «وَانْقَطَعَ مَدُّهَا وَعَجَزَ سُلْطَانُهَا عَنْ تَوْحِيدِ الْعَسَاكِرِ لِلسُّوسِ فَفَسَدَتِ الطُّرُقَاتُ وَعُدِمَتِ الْأَحْكَامُ وَأَكَلَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ»(الزياني، 2008، ص74)، ففي هذه الأثناء قامت الدولة السعدية- وهي ثاني أسرة عربية صريحة قامت في المغرب بعد دولة الأدارسة- بهذه المهمة خير قيام، خاصة على عهد مؤسسها محمد القائم بأمر الله وبمعية ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج (دي طوريس، 1988) ، فاغتنم محمد القائم بأمر الله (2) الفرصة وجعل زاويته مركزا لدعوته، وكان يخاطب أعيان قبائل السوس وأشياخها في أيام معلومة حددها لهم، وفي إحدى خطبه قال: «إِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَةَ عَجَزَتْ عَنِ التَّصَرُّفِ وَقَصُرَتْ يَدُهَا عَنْ بِلَادِكُمْ فَضَاعَتْ الحُقُوقُ وَتَطَلَّعَتِ الْأَحْكَام وَلَا يَنْبَغِي لِكُمْ إِهْمَالُ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَا يَحِل لَكُمْ أَنْ تَبْقَوْا فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ يُقِيمُ الْحُقُوقَ فَلَوْ عَيَّنْتُمْ رَجُلًا يَقُومُ بِإِصْلَاحِ بِلَادِكُمْ وَيُنْصِفُ مَظْلُومَكُمْ، وَيُصْلِحُ بِلَادَكُمْ وَمَا يُفَضَّلُ فِي الْجِهَادِ وَبِهَذَا يَكْمُلُ إِسْلَامُكُمْ...»(الناصري، 1955، ج5، ص76).

ويجدر بنا في هذا المقام أن لانسرد كل ما روي عن هذه الأحداث التي ينافي بعضها بعضا، كقصة الرجل الصالح الذي أخبره بأن ولديه سيملكان المغرب (البدوي، 2010)، مما ذكره صاحب تاريخ الدولة التكمدارتية عن قصة الديك (مجهول، 1994) والروايات الكثيرة حول الكرامات والصلاح في نزهة الحادي... (الإفراني، 1888) وما إلى ذلك...، ولكننا سنركز على الحالة التي وصل إليها الوطاسيون من الضعف حتى أصبحت الكثير من القبائل لا تعترف بسلطانهم (الجمل، 1988)، فلم يكن السّوسيون راضين عن الأوضاع الّتي آلت إليها

(2) نشأ أبو عبد الله القائم بأمر الله على عفاف وصلاح وكان مجاب الدعوة، وكان له ولدان أحمد ومحمد نشآ في حجر والدهما على قراءة العلم ولما أدركا كانا يتوجه بهما والدهما معه إلى الرباط مناوبة إلى أن عرفتهما القبائل الذين يأتون للرباط، قام هذا الأخير بأداء فريضة الحج والتقى هناك جماعة من العلماء و الأعلام والصلحاء العظام، أحمد الناصري الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية، تحقيق جعفر الناصري ومجمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج5، ص06، أبو القاسم الزياتي، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تقديم وتحقيق رشيد الزاوية، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1997، ص46، أحمد الناصري، مرجع سابق، ج5، ص06.

بلادهم وعدم تقبل خضوعهم للأجانب(3)، وما يجب الإشارة إليه أيضا، أن بلاد السّوس كانت المقر الأول للطريقة الجازولية الّتي عمت شهرتها كل بلاد المغرب والتي لها أثر كبير في نفوس العامة أكثر من أثر الوطاسيين أنفسهم، ولا سيما في بلاد السّوس، فبادروا إلى دعوة الناس بالتمسك بعرى الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كريم، 2006).

ولما استشعرت قبائل السوس حاجة البلاد لجمع الكلمة وحمل السلاح ضد النصارى الغزاة؛ ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك(4)الأقاوي، فذكروا له ما هم فيه من أوضاع كانتشار المجاعة وتهديدات العدو،وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه (الناصري، 1955)، وهو ما برره المؤلف المجهول بقوله: «لِأَنَّ الْمَرِيئَ عَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بَالْحَقِّ الْوَاجِبِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ»(مجهول، 1994، ص14).

ولما استقدم الشيخ وانتدب لهذا الأمر امتنع عن ذلك لإدراكه صعوبة المهمة، فدلهم على من هو أقدر عليها وهو أحد الأشراف بتكمدارت ببلاد درعة وهو المولى أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن، وما إن وصل الوفد من آقة حتى تسارعت عليه شيوخ القبائل إلى تكمدارت، وتمت له البيعة بتدسي(5) سنة 915هـ/ 1510م، وكانت بيعته باعتراف الشيوخ والفقهاء من المصامدة في عهد أبي عبد الله البرتغالي الوطاسي (الإفراني، 1888).

وما إن استتب الأمر للأمير أبي عبد الله القائم بأمر الله، واجتمعت كلمة القبائل السّوسية عليه بعد أن قام بمهاجمة البرتغال في أكادير التف حوله جموع حافلة من

---

(3) في هذا الصدد يذكر المؤلف المجهول: «فعاشوا [يقصد بني مرين] بالقناعة دون الكفاية، وكانوا لا يتحاسدون ولا يتنافسون ولا يجورون، متعففون [كذا] عما في أيدي الرعية...». مؤلف مجهول، مصدر سابق، ص13.

(4) وهو من أشهر الأئمة الذين عرفهم بلاد السوس، والذي عرف بالورع والتقوى والقيام بشؤون العلم والتدريس، أنظر: محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص113، عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 36.

(5) مدينة في سوس وهي مدينة كبيرة أسسها الأفارقة على بعد ثلاثين ميلا من شرق ترودانت، وستين ميلا من البحر وعشرين ميلا من الأطلس وهي بلاد منتجة خصبة، انظر، الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1، ص119.

المسلمين (السملالي، 1983)، وصمدوا معه في الحرب فانتصر ومن معه فطمعت نفسه في إخضاع كل المغرب، فلما رأى المسلمون ذلك تيمنا بطلعته وتفاءلوا له، وزادهم ذلك محبة وتعظيما لمكانته(الناصري، 1955)، ولكنه لم يصرح بعداوته لبني مرين ما داموا قادرين على دعمه بالجند والمال والطبول وغيرها.

ولما توفي عبد الله القائم بأمر الله بعد مبايعة ولده الأكبر أبي العباس أحمد الأعرج(6)التفت حوله القبائل المغربية وبايعته خليفة لأبيه وإماما للمجاهدين في بلاد السوس(الإفراني، 1888)، فلما استقامت له الأمور بدأ يمارس نشاطه في محاربة البرتغاليين وجهادهم وشن الغارات على العدو البرتغالي، وضيق المنافذ على القبائل السوسية (الغنيمي، 1994) المتعاونة مع البرتغاليين، فاستطاع أن يوسع نفوذه وينشر في البلاد، فذاع صيته وملك جميع البلاد السوسية، وهرع الناس إليه وقصدوه من كل جهة ووفدوا عليه حتى أن أمراء هنتاتةقد كاتبوه ودخلوا تحت طاعته(الإفراني، 1888)، ولا نستغرب ما قد يقع فيه الملك الوطاسي من التباس بين ما هو سياسي وما هو ديني صوفي، حتى أن المؤرخ المجهول يذكر أنهم كانوا يقدمون الإعانات والمدد العسكري للمتطوعين من المجاهدين في سوس، وكان هذا من الأخطاء التي ستكلفه بقاءه في الحكم(مجهول، 1994).

إلا أن حماس السعديين للجهاد، بعد القضاء على الملك الوطاسي؛ لم يلبث أن أصابه بعض الفتور بسبب عوامل متعددة، فقد مال بعض الملوك إلى الرغبة في الاستقرار ومهادنة المحتل وأعطوا الأولوية لقضايا داخلية أخرى(اليوبي، 1998)، ففي عهد عبد الله الغالب اقتصرت حركة جهاد على محاولة لتحرير الجديدة من يد البرتغالين سنة 969هـ/ 1562م، غير أن محاولاته لم تكلل بالنجاح (اليوبي، 1998).

---

(6)ولد أبو العباس الأعرج ستة 891هـ/ 1486م، وبويع للعهد سنة 918هـ/ 1513م، وهو من ملوك الدولة السعدية تولى الملك بعد أبيه أبي عبد الله القائم بأمر الله إلا أن أخاه أبا عبد الله محمد المهدي المعروف بالشيخ انتزع الحكم منه وسجنه فمكث في السجن نحو ثمان عشرة سنة، ولما قتل الشيخ من طرف الأتراك، قام خليفته بمراكش بقتل أبي العباس الأعرج وأولاده خوفا من مبايعة أهل مراكش له، إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص277، الاستقصاء، ج5، ص ص14، 33.

بينما عرف عهد عبد الملك أكثر اهتماما بقضايا الجهاد والغزو حتى تلقب بالغازي، وقد وقعت في عهده أعظم معركة خاضها السعديون ضد الأطماع الأجنبية، وهي معركة "وادي المخازن" التي انتهت بهزيمة البرتغال 4 أوت 1578م(Berthier, 1985)، وقد حقق السعديون في هذه المعركة نتائج إيجابية متعددة على جميع المستويات، فأصبحوا ذوي الصيت بين الدول ويحظون بالاحترام والتقدير، وكانت الفتن والاضطرابات الداخلية التي شهدتها البلاد بعد وفاة المنصور وانشغال الملوك بإخمادها وبمواجهة النزاع على السلطة سببا في انكماش حركات الجهاد الرسمية، بل انكماش الدولة في حد ذاتها، مما غير من موقف العامة والعلماء الذين تجاه السعديين خاصة بعد سنة 1610م، عبروا عن سخطهم بإدانة الملوك المتهاونين وتأييد حركات الجهاد المستقلة (مبرك، 2017).

لهذا يمكن أن نقول بأن الأشراف السعديين أظهروا النزعة الجهادية بشكل ملفت، ويذكر دييغو دي طوريس في كتابه تاريخ الشرفاء أن الحملة الجهادية التي تزعمها السعديون قد وجدت آذانا صاغية إذ يقول: «عِنْدَمَا أُعْلِنَ عَنْ هَذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ تَسَارَعَ الْعَدِيدُ مِنَ النَّاسِ خَاصَّةً إِلَى الْأَمَاكِنِ الَّتِي كَانَ يَمُرُّ بِهَا دُعَاةُ الْجِهَادِ، وَكَانَ الشُّيُوخُ وَالْعَجَزَةُ يُقَدِّمُونَ هِبَاتٍ سَخِيَّةٍ إِلَى الشَّرِيفَيْنِ، حَتَّى أَنَّهُمَا تَوَصَّلَا بِأَكْثَرَ مَا يَلْزَمُ لِنَفَقَاتِهِمَا، فَقَرَّرَا الْاِقْتِرَابَ مِنْ طَنْجَةَ، وَأَصِيلَا بِهَؤُلَاءِ الْجُنُودِ، وَانْقَسَمُوا إِلَى فِرْقَتَيْنِ تَوَجَّهَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى طَنْجَةَ وَالْأُخْرَى، وَالْأُخْرَى أَصِيلَا، قَصْدَ نَصْبِ الْكَمَائِنِ، وَاجْتِيَاحِ الْبِلَادِ فِي آنٍ وَاحِدٍ» (دي طوريس، 1988).

فدولة السعديين كانت دولة رائدة في مجال الجهاد كغيرها من الدول السابقة ويذكر عبد الله كنون في كتابه النبوغ المغربي عن الدولة السعدية بأنها دولة لم تستند في قيامها إلى مهدوية، ولا مذهب ديني ولا عصبية قبلية وإنما كان نهوضها لتحقيق أمنية وطنية وذلك في إشارة منه إلى قيامها بأعباء الجهاد وتوحيد المغرب تحت سلطتها، فالدولة السعدية في نظره طالبة لا مطلوبة لهذا قام بنصرتها البربر الذين ناصروها ضد دولة بني وطاس البربرية، دون مراعاة ما تقتضيه عصبية النسب واللغة والقومية من احتماء ودفاع، فبقاء هذه الدولة مرهون بتمسكها بمبدئها الأساس "الجهاد" فكان الجهاد هو العصب الذي تلتف حوله العامة والخاصة وفي ذلك يقول الشاعر الهبطي:

فَرَحِمَ اللهُ أَمِيرًا قَدْ سَلَكْ *** نَهْجَ الْهُدَى وَمَا سِوَاهُ قَدْ تَرَكْ

كَمَا بِهِ أَخْذُ الْحُدُودِ وَالْحُقَقْ ***وَالْأَمْرَ فِي حَرْزِ الدِّيَارِوَالطُّرُقْ(الامين، 1999،ص121).

3. تطوان القاعدة الجهادية لآل المنظري

اختلفت الروايات حول تسمية تطاوين، فالحسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" ربط هذه التسمية وبين الأميرة العوراء التي حكمتها، "تطاوين" –كما أوردها المترجم- ومعناها عين واحدة باللغة الإفريقية (7)، إلا أن البعض يرجح بأن اسم تطاوين ليس سوى تحريف للكلمة الأمازيغية التي تعني العيون الجارية والذي تختلف لهجة النطق به حسب الجهات، وهو اشتقاق يذكر لغنى الموضع بالمياه وارتباط السكان به، ثم أن الاختلاف في نطق الكلمة جعل الإخباريين القدامى يكتبون اسم هذه المدينة بصيغ مختلفة فالبكري (في القرن 5هـ/11م) سماها تيطاوان، وفي القرن 12 م ذكرها كل من الشريف الإدريسي بتيطاوين، أما ابن خلدون فذكرها بتيطاوين ووردت عند ابن عذارى المراكشي بتيطاون وهي نفس الكلمة التي وجدناها عند الوزان في القرن 16م، وقد خالفهم في ذلك كل من ابن أبي زرع الفاسي القرن 14م، ومارمو لكاربخال القرن 16م اللذين سمياها بتِطوان (الوزان، 1983) .

أما صاحب المخطوط التطواني لمؤلف مجهول وهو تقييد يحتوي على بضع صفحات، عثر عليها المؤرخ محمد داود في ذكر أخبار تطاوين ولم يتحقق من اسم مؤلفه فنعته بالمخطوط القديم فذكر أن اسمها تِطَّاوين، جمع تِط بكسر التاء وفتح الطاء المشددة، وهي العين بلغة البربر جارية، وتصدق عندهم بعين البصر، والوارد هنا الأولى بقسميها لكثرتها حتى سميت حومة منها بذلك (داوود، 1995).

1.3 تأسيس تطوان الحديثة

استمرت تطوان التي هدمت في النصف الأول من القرن الخامس عشر خالية من السكان إلى أن تم تجديدها من قبل المسلمين المهاجرين من الأندلس(السعود، 2007)، وفي هذا الصدد يقول مارمولكاربخال« كَانَتْ أَنَذَاكَ أَهِلَةً بِالسُّكَّانِ لَكِنَّهَا دُمِّرَتْ مِنْ طَرَفِ أُسْطُولِ قَشْتَالَةَ وَأُسِرَ جَمِيعُ سُكَّانِهَا تَقْرِيبًا ثُمَّ بَقِيَتْ خِرْبَةً طِوَالَ تِسْعِينَ سَنَةٍ حَتَّى

(7)حسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص319.

تَسَلَّمَهَا الْمَنْظَرِي الَّذِي عَبَرَ إِفْرِيقِيَا عَقِبَ احْتِلَالِ غَرْنَاطَةَ مِنْ مَلِكِ فَاس» (كربخال، 1998، ج2، ص222).

أولهما: لمؤلف مجهول صاحب مخطوط تطوان والسكيرج وهما كلاهما من أهل تطوان، وروايتهما هي التي يتناقلها الخلف عن السلف، وأهل البلاد هم أكثر وأعرف عن غيرهم بتاريخ بلدهم، ورمز لذلك التاريخ بعام كلمة «تفحة» وهي قيمة عددية بحسب النظام الأبجدي حيث عثر على نظم يثبت تاريخ البناء في الكناش القديم(داوود، 1995).

قَدْ بُنِيَتْ تَطَاوِنُ يَقِينَـا *** عَامَ التُّفَّاحَةِ(8) مِنَ السِّنِينَـا
شَهْرَ شَعْبَانَ فِي حَرْفِ الـزَّاءِ(9) ***اِبْتَدَأُوا الْحَـفِيرَ وَالْبِنَاءِ
وَكَمُلَتْ عِنْدَهُمْ تَمَامَ الْكَافِ(10)*** قَدْ صَحَّ ذَا عِنْدِي بِلَا خِلَافٍ
وَكَانَ عَدَّةُ رِجَالِ الْبـر *** مِيمَ زَاءٍ لَيْسَ ثَمَّ أَكْثَـر(11)
وَعَدَّةُ النِّسَاءِ نَقْطُ الْيَاء(12) ***فَهَؤُلَاءِ أَسَّـسُوا الْبِنَاء

ومضمون هذه الأبيات حسب ما أورده محمد داود أن مدينة تطوان الحديثة قد وقع الشروع في حفر أسسها وبناء جدرانها في اليوم السابع من شهر شعبان عام (تفحة) أي سنة 889هـ، ولعل مراده من شطر البيت الثالث أن الفراغ من بناء هذه المدينة كان بعد عشرين سنة على الشروع في ذلك البناء(داوود، 1995).

ويفترض أن يكون هذا التجديد الأول قد شمل القصبة التي شيدها السلطان يوسف بن يعقوب المريني والأفراك الذي أقامه السلطان أبو ثابت، وسيكون تجديد البناء ثانية على يد القائد علي المنظري، وذلك بعد سقوط غرناطة وكما جاء في تقييد العربي الفاسي أنه في شهر شعبان عام 898هـ موافق يونيو 1493م، وهذا التجديد كان أهم وأضخم من الأول(السعود، 2007).

---

(8) ويقصد سنة 889هـ، رمزا بحساب الجمل.

(9) حرف الزاي يرمز للعدد 7.

(10) حرف الكاف يرمز للعدد 20.

(11) يقصد أن عدد هؤلاء لم يكن إلا 47 رجلا، ولكن العدد ازداد في ما بعد وكثر الرجال.

(12) لعله يقصد أن عدد النساء اثنتين، أو عشر نساء.

ذكر محمد داوود ناقلا عن مخطوط فاسي قديم؛ أن الناس شرعوا في البناء حتى قاومهم سكان القبائل المجاورة من بني صالح وبني حزمر وبني سالم، محتجين أن الأرض التي يبنون فيها مرفق لهم ومرعى لمواشيهم فرفع الغرناطيون أمرهم لأمير الوقت فاعتذر لهم بأن لا مال عنده وأمر ناظر القرويين أن يسلفهم من الأحباس أربعين قنطارا أي أربعين ألف مثقال ووجه معهم أربعين من أهل فاس، وأربعين من أهل الريف يحرسونهم من بني حزمر(الرهوني، 2001)، وذكر صاحب المخطوط أن المنظري اشتكى لمولاي علي بن راشد تعسف الجوار، فبعث هذا الأخير على قبائل الريف فجاء منهم نحو من أربعمائة فارس وبوجودهم ساد الأمن(رزوق، 1998).

هكذا كان موقف سكان القبائل المغربية من مهاجري غرناطة البعض يتضايق منهم ويناوشهم، والبعض الآخر يعطف عليهم ويحميهم ويسكن معهم على أنه لم تمض مدة طويلة حتى زال الخلاف واستأنس الجبليون بالأندلسيين وصاروا يستفيدون من معارفهم وحضارتهم وصناعتهم، ثم لما رأوا من شجاعتهم ونجدتهم وصاروا يتشاركون جميعا جنبا لجنب في قتال الأجانب الذي كانوا مغتصبين لأقرب المدن في تطوان وهي مدينة سبتة المغربية (داوود، 1995).

2.3 إشراف المنظري على حكم تطوان وجعلها منطلقا للعمل العسكري

برز الدور الجهادي للمدينة بعد أن كانت معرضة للخطر البرتغالي، حتى أن الوزان قد ذكر أنها بقيت خربة لحوالي 80 سنة، ولكن بعد أن جددها القائد المنظري الغرناطي وشيد فيها حصنا محاطا بخنادق وجعل على باقي أسوار المدينة خنادق أيضا، حينئذ تولت المدينة رد هجمات البرتغاليين –التي لا تنقطع حسب الوزان-(الوزان، 1983)، ليس على تطوان فقط ولكن كل الثغور المغربية(13)، كان البرتغال والإسبان قد أتموا السيطرة على أهم المرافئ والثغور المغربية مثل طنجة عام 869هـ والدار البيضاء وأصيلا عام 876هـ والجديدة عام 907هـ والعرائش عام 910هـ، و آزمور عام 914هـ، والمعمورة عام 920هـ، وهو ما جعل مدينة تطوان محل الأطماع ليس فقط الإسبان والبرتغال بل حتى الإنجليز والهولنديين القوى الأوروبية الأخرى(الرهوني، 2001)، لذا تولى

(13) محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ت، ص180.

المقاومة مجاهدون من قبائل كثيرة كانت الرئاسة فيهم لآل المنظري، الذين ضاقوا في بلادهم من قبل مرارة الغزو والخيبة والإذلال قبل مغادرتهم البلاد، وهو ما جعلهم يدركون جيدا مدى خطورة التوسع المسيحي في السواحل المغربية الأمر الذي شجعهم إلى القيام بحركات غزو خاطفة وخاصة في البحار ضد السفن الإسبانية (كريم، 2006).

وتصف المصادر والروايات المواجهات العسكرية لآل المنظري على أنها غاية في الشجاعة والحقد على البرتغاليين والإسبان، وقد يكون حقده على الملكين الكاثوليكيين اللذين احتلا مسقط رأسه العامل الرئيسي في جهاده وفي استنفار قواته العسكرية، وفي هذا المضمار يصف الوزان شخصية القائد الغرناطي الذي قام على أعباء الجهاد والدفاع عن تطوان إضافة إلى ملاحظات مما شاهد في تطوان فيقول: «وكَانَ هَذَا الْقَائِدُ مُحَارِبًا مِقْدَامًا، حَقَّقَ أَعْمَالًا بُطُولِيَّةً خِلَالَ حُرُوبِ غَرْنَاطَةَ، فَدَعَاهُ الْبُرْتُغَالِيُّونَ المنظري... وَكَانَ مَعَهُ دَائِمًا ثَلَاثُمَائَةَ فَارِسٍ كُلُّهُمْ غَرْنَاطِيُّونَ مِنْ نُخْبَةِ أَهْلِ غَرْنَاطَةَ، فَجَعَلَ يَجُوبُ أَنْحَاءَ الْبِلَادِ بِهَذاَ الْجَيْشِ وَيَأْخُذُ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ... وَلَقَدْ شَاهَدْتُ فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ الَّتِي ذَهَبْتُ فِيهَا إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةَ آلَافِ أَسِيرٍ...» (الوزان، 1983).

ومن خلال هذا الوصف الذي أفادنا به الحسن الوزان؛ يمكن أن نلاحظ الفرق بين المهاجرين الأندلسيين إلى تطوان وأولئك الدين هاجروا نحو المدن الأخرى، فبينما اندمج هؤلاء في الحياة المدنية محتفظين بماضيهم في ذاكرتهم أبى المهاجرون إلى تطوان إلا أن يواصلوا جهادهم ضد البرتغاليين والإسبان طوال القرن 16. وظل حلم العودة إلى بلادهم قائما حيث كانوا يعتبرون إقامتهم مؤقتة فقط، وهناك فرق آخر لا يقل أهمية عن سابقه فهجرة الأندلسيين إلى خلاف المغرب خاصة البلاد الخاضعة للأتراك وخاصة تونس التي أحكمت السلطة العثمانية تنظيمها فإن المهاجرين إلى المغرب كانوا مضطرين لتسيير شؤونهم بأنفسهم نظرا للفراغ السياسي الذي كانت تعرفه البلاد من جراء سقوط الدولة الوطاسية.

4. آل راشد بشفشاون

شفشاون عند العامة شاون والإسبانية "XAUEN"،وأصل الاسم هو صيغة الجمع لبربرية "شفشاون"، جاء في تقييد القاضي العلامة محمد الصادق الريسوني "شفشاون" كلمة بربرية معناها محل صالح للجهاد، وقيل أيضا في اشتقاقها أنها مأخوذة من الشفشاون وهو الاختلاط ومحل نزول المجاهدين، وقيل كذلك أن

شفشاون كان اسم الجبل المجاور لموضع المدينة الحالي، أما الرأي الذي استقر عليه أغلب المؤرخين أن اسم شفشاون مركب من كلمتين الأولى وهي "شف" بمعنى انظر والثانية "إشاون" جمع كلمة "إش" وتطلق في العادة على قمة جبل حادة وعليه يكون معنى شفشاون "نظر إلى القرون" أو انظر إلى قمم الجبال.

وهي عبارة عن بلد صغير في الشمال المغربي لمراكش على مسيرة 35 ميلا جنوبي تطوان 60 كم، يقوم عند السفح جبل سيدي بوحاحة وهو طرف من كتلة بوهاشم الجبلية على رافد من روافد وادي"نو"، وتدخل شفشاون الآن في منازل قبيلة الأخماس إن كانت الحال جرت أن تتبع بني زحل وهي قبيلة من فرع غمارة.

جاء في كتاب الجغرافي المارمول كاربخال: «هَذَا الْجَبَلُ مِنْ أَلْطَفِ جِبَالِ إِفْرِيقِيَا كُلِّهَا فِيهِ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ تَحْمِلُ نَفْسَ الْاِسْمِ» (كربخال، ج2، ص249) المدينة المقصود بها هنا هي مدينة شفشاون ومن خلال هذا القول نستنتج وقوعها في جبال شاهقة وبعدها كذلك عن مدينة سبتة بحوالي مائة كيلومتر، أنها تتوفر على الشروط المطلوبة لتجعل منها مكان استقرار ومكان لتنظيم حملات المقاومة فالدلالة هنا واضحة من خلال اسمها وموقعها، ونتيجة انفتاح وتوسع مدينة تطوان فكر أهلها في اختطاط مدينة جديدة بالمقربة منها في الناحية المسماة عندهم بالعدوة أو بعدة شفشاون، هذه المدينة التي ستعرف فيما بعد بتاريخها المربي بمدينة شفشاون، لتكون بلك رباطا ينطلق منه المجاهدون لمحاربة المسيحيين الذين يحتلون ثغور المغرب وبخاصة سبتة.

كان ابتداء تخطيط هذه المدينة في حدود 876هـ/ 1471م على يد الفقيه المجاهد "أبي الحسن بن أحمد المعروف بأبي جمعة"(الرهوني، 2001)، فهو الذي فكر في تأسيس أول رباط للجهاد في المغرب الأقصى ونادى بالجهاد وقاده في سبيل دينه ووطنه ضد الغزو البرتغالي، في الوقت الذي لم تكن البرتغال تحتل بأرض المغرب سوى مدينتي سبتة والقصر الصغير، حيث أذاق البرتغالين الأمرين وأصبح شوكة في حلقهم، الأمر الذي دفعهم في التفكير في التخلص منه، فبينما هو يتهجد في مسجد هناك أضرموا النار عليه فمات قبل تمام بناء المدينة (القادري، 1996).

بعد أن قضى أبو جمعة نحبه، قام مقامه حفيده "أبو الحسن علي بن موسى بن راشد"، فشرع فياختطاط شفشاون فبنى قصبتها وأوطنها وأنزل الناس بها وبنو بها وصارت في عداد المدائن، وقام مقامه في الجهاد أيضا وكان مقدما على حملات الجهاد وقائد على كل من تطوان وشفشاون، واشتهر علي بن راشد ببسالته في الجهاد كما ملك الجبال المجاورة أيضا وتلقب بملك وأمير شفشاون إذ كان في حرب دائمة مع البرتغاليين المقيمين في حصون العدو وأحرز عدة انتصارات سواء في البر أوالبحر برفقة المنظري أمير تطوان وغيره من محاربي غرناطة(كربخال، 1989).

بقيت مدينة شفشاون تابعة عسكريا لمدينة تطوان مدة من الزمن، وبقي الحكم في تطوان بيد آل راشد بعدما توفي سنة 917هـ إلى أن خضعت كلا المدينتين إلى الدولة السعدية، وذلك بعد حصار الوزير أبو عبد الله بن عبد القادر بن محمد الشيخ السعدي على عهد المولى أبي عبد الله المتوكل المسلوخ (1574-1157م)، و بها انتهى حكم مقدمي الجهاد في مدينتي تطوان وشفشاون وأصبحتا تابعتين إلى البلاط السعدي(مبرك، 2017).

1.4 مصاهرة آل المنظري مع آل راشد

كانت الحرة بنت القائد والأمير علي بن موسى بن راشد الشفشاوني الحسني من شرفاء جبل العلم، أما أمها فهي لالا زهرة الإسبانية الأصل، دخلت الإسلام وانتقلت مع زوجها علي بن راشد إلى شفشاون، ولدت الحرة في حدود سنة 900هـ/ 1495م ترعرعت ونشأت في حجر والدها فقد نشأت في بيت شريفة النسب عالي المقام في شفشاون، وتلقت تعليمها على يد أشهر العلماء ورجال الدين بهذه المدينة ولا شك أن ذكاءها ومواهبها ساعداها على أن تحصل على ثقافة واسعة انعكست على تصرفاتها وحياتها فيما بعد(الذهبي، 1994).

أما عن اسمها "الحرة" فهذا الاسم من الأسماء التي عرفت بالأندلس والمغرب أيضا إذ لازال منتشرا في البوادي، غير أن من المؤرخين من ادعى أن اسمها عائشة ولذلك فهم يجعلون لفظ الحرة لقبا يطلق عليها تشبيها لها بأنثى الطائر الحر هو الباز فهي قد شبهت به في نظر هؤلاء نظرا لما كانت تتمتع به من ذكاء وشجاعة ونخوة وخبرة سياسية، واعتقد البعض الآخر أن اسمها عائشة ولقب الحرة يندرج في إطار التمييز بين الحرائر

والإماء ومن بينهم الأستاذ محمد داود، ويظهر أن هذا الخلط راجع أساسا إلى ما أوردته المراجع الأجنبية حول السيدة الحرة والسيدة عائشة بنت أحمد بن عبد الله ابن علي الإدريسية والدة الشيخ محمد ابن عسكر مؤلف دوحة الناشر(داوود، 1995).

تولت الست الحرة تطوان مرتين الأولى حينما كانت زوجة القائد المجاهد المنظري الحفيد من أسرة المنظري مؤسسي تطوان الحديثة، وهو من المجاهدين الذين لم ينقطعوا عن محاربة البرتغاليين في ثغور سبتة، القصر الكبير وطنجة، كما أنه جمع بين القدرة الحربية وحسن التخطيط في هذا الميدان فكان يقود الجهاد في المراكز المغربية ويوجه ماكان يملكه من السفن الصغيرة لمواجهة الشواطئ الإسبانية(الذهبي، 1994)، ورد في العديد من المصادر أن الست الحرة زفت إلى القائد المنظري في حياة والدها علي بن راشد وذلك حوالي سنة 1510هـ، زفت وهي مكتملة النضج في نحو الثامنة عشر من عمرهاكانت تتولى بعض الأحكام. أما في غيبة زوجها إذا غاب عنها في حروبه المتوالية مع الإفرنج فهي تنوب عنه في إبداء الرأي والإشارة بنظرها في بعض القضايا المهمة والفصل في المسائل العادية، فزوجها هنا كان ينيبها عنه لما كان يرى من سداد رأيها وحسن تدبيرها، وأما بعد وفاته بقيت داره عامرة وحاشيته ملتفة حولها وبقيت متحكمة في زمام الحكم ولم يجد الناس في ذلك حرجا لما كانوا يرونه من حزمها وحسن تدبيرها وحنكتها السياسية(داوود، 1995).

وتصف بعض المصادر أن هذا الزواج كان بمثابة تحالف متين بين إمارة شفشاون وقيادة تطوان من أجل تقوية الدفاع ضد البرتغاليين المحتلين لثغور شمال المغرب،دون أن ننسى ذلك الامتزاج بين الطابعين المغربي والأندلسي وامتداد العلاقات المتينة التي ربطت إمارتي شفشاون وتطوان قبل الزواج وبعده، ونذكر على سبيل المثال موقف والدها الشيخ علي بن راشد الذي استخلف –أثناء مرضه الأخير- كلا من ولده مولاي إبراهيم شقيق السيدة الحرة وصهره المنظري الحفيد على رأس جيوش المجاهدين كما أنها علاقة قديمة مستهدفة مستمدة من وحدة الأهداف ومن مشاركة علي بن راشد بناء مدينة تطوان (الذهبي، 1994).

2.4 مصاهرة آل راشد مع الوطاسي

أما فيما يخص الطور الثاني من حياة الست الحرة، فتمثل في زواجها من السلطان أحمد الوطاسي عام 948هـ/ 1541م، حيث ذكرها العلامة سيدي العربي الفاسي في كتابه "مرآة المحاسن" إذ قال فيه: «وَلَمَّا كَانَ خُرُوجُهُ [أي سلطان فاس أحمد الوطاسي] الَّذِي وَصَلَ فِيهِ إِلَى تِطْوَانَ وَتَزَوَّجَ الْحُرَّةَ بِنْتَ الْأَمِيرِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ بنِ عَلِي بنِ مُوسَى بنِ رَاشِدٍ الشَّرِيف... تَزَوَّجَ بِهَا وَبَنَى تِطْوَانَ»(داوود، 1995، ج1، ص121)، غير أن هذا الزواج يمكن أن نعتبره ملفتا للأنظار ويكتنفه بعض الغموض، ذلك لأنه زواج سلطان ينتقل من فاس ليتزوج في تطوان على غير عادة الملوك، وهو في مجموعة عديدة من جيشه الوافر وحاشيته وغيرها أمر ليس بالعادي، حتى أنه هناك من اعتبر هذا الزواج شبيها بزواج الملكين الكاثوليكيين فرديناند (1452-1516) وإيزابيلا (1451-1504) ملكا إسبانيا.

لم تكن علاقة السلطان أحمد الوطاسي بالست الحرة وليدة يوم وليلة، بل هي علاقة كانت قائمة قبل هذه زيارة الوطاسي لتطوان بكثير، بدأت بعلاقة هذه الأسرة الوطيدة مع البلاط الفاسي، وهذا من خلال روابط عدة من بينها أن أخت السلطان الوطاسي السيدة عائشة بنت السلطان محمد الشيخ الوطاسي(910هـ-931هـ) الملقب بالبرتغالي كانت هي زوجة الأمير إبراهيم أخ السيدة الحرة، والذي كان وزيرا ومستشارا للسلطان وعلى رأس القيادة العسكرية، والأهم من ذلك أنه كانت بين السلطان والأميرة مراسلات ومكاتبات عديدة في الكثير من الأمور السياسية إلى غير ذلك، نظرا لهذه الروابط السياسية والعائلية فإنه من المؤكد أن يكون هوى الأميرة الراشدية هو هوى وطاسي، ولا نستبعد أن يكون هوى المنظرين أيضا فاسي وطاسي.

عصفت الكثير من الأحداث بدولة الوطاسيين منذ بداية القرن 16م، وتكن الأحوال والظروف في صالح الوطاسيين، فكان مقام السلطان المذكور ودولته على وشك الزوال بسبب بروز السعديين واستفحال أمرهم بالجنوب المغربي ومقاسمتهم لدولته، لذا كان من الحري به أن يبحث عما يوطد مركزه لذلك تزوج بالست الحرة لما كان لها من مقام ممتاز بشفشاون ومختلف قبائل غمارة وجبالة والهبط بشمال المغرب، فلا يستبعد أن يكون هذا الزواج زواجا سياسيا محضا، يهدف من خلاله كسب تأييد النواحي والأطراف الشمالية، وقد أكسب هذا الزواج الحرة الكثير من الامتيازات والنفوذ الواسع(داوود، 1995).

5. القضاء على الست الحرة سنة 949هـ

زواج السيدة الحرة من السلطان أحمد الوطاسي بتطوان سنة 948هـ عقب وفاة زوجها المنظري حاكم هذه المدينة، وحكمها بها بعد ذلك في أوائل سنة 949هـ، هذا الأمر لم يرق لكبار الرجال من عائلة المنظري وغيرهم،فقاموا بمؤامرة لقلب حكومتها والاستيلاء على حكم المدينة، وممن شارك في هده المؤامرة "محمد الحسن المنظري" حفيد المنظري حاكم تطوان وصهر الست الحرة، وكان قاطنا مع عائلته بفا، فرحل إلى تطوان واستولى على الحكم فيها بالقوة، وقد جاء في المصادر البرتغالية أنه في يوم عشرة شهر أكتوبر سنة 1542م الموافق لشهر رجب عام 949هـ غادر السيد محمد المنظري مدينة فاس هاربا من السلطان أحمد الوطاسي وتوجه نحو مدينة تطوان فوصلها على رأس جماعة من الفرسان ومعه عائلته وبعد يومين من وصوله أعلن نفسه حاكما على هذه المدينة مستقلا عن سلطان فاس ثم أخرج الست الحرة من المدينة واستولى على جميع ممتلكاتها(داوود، 1995).

خاتمة

يمكن للباحث أن يلاحظ وبسهولة أن السياسة والرئاسة والملك في المغرب مرتبطة بالجهاد ارتباطا وثيقا، وهو ما تقر به المصادر التاريخية مثل التامنارتي في كتابه الفوائد الجمة في إسناد علوم الأئمة، الذي ربط التامنارتي بين المغرب الأقصى وبين الجهاد من لدن إدريس الأكبر إلى حدود الألف ونيف من الهجرة، وأن هذه الفريضة –حسب تعبيره- انتهت بعد أن نزل "الْأَمْرُ الَّذِي يَنْسِفُ الْأَقْطَارَ وَيَجْرِفُهَا جُرْفَ السُّيُولِ وَالْأَمْطَارِ، طَاعُونُ السَّادِسِ بَعْدَ الْأَلْفِ"، وأورد في ذلك قصيدة طويلة –لعلها من نظمه- اشتملتعلى ذكر "دُوَلِ مَنْ مَضَى مِنْ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَبَعْضِ وَقَائِعِهِم الْمَشْهُورَةِ وَاعْتِنَائِهِمْ بِالْجِهَادِ وَحِمَايَةِ الْإِسْلَامِ فِي أَيَّامِهِمْ"، ومطلعها:

ضِبَاءُ الْعَقِيقِ حَبَكْنَ يَزِيد *** وَشَوْقِي إِلَى أَبْطَاحِكُنَّ عَتِيد (التامنارتي، 2007، ص353)

كانت دولة السعديين رائدة في مجال الجهاد كغيرها من الدول السابقة، ويذكر عبد الله كنون في كتابه النبوغ المغربي عن دولة السعديين أنها دولة لم تستند في قيامها إلى

مهدوية*، ولا مذهب ديني ولا عصبية قبلية، وإنما "كَانَ نُهُوضُهُا لِتَحْقِيقِ أُمْنِيَةٍ وَطَنِيَّةٍ" (كنون، 1962، 233)، وذلك في إشارة منه إلى قيامها بأعباء الجهاد، وتوحيد المغرب تحت سلطتها، فالدولة السعدية في نظره مطلوبة لا طالبة، لهذا قام بنصرتها البربر الذين ناصروها ضد دولة بني وطاس البربرية، دون مراعاة ما تقتضيه عصبية النسب واللغة والقومية من احتماء ودفاع، فبقاء هذه الدولة مرهون بتمسكها بمبدئها الأساس "الجهاد"، فكان الجهاد هو عصب الدولة الذي تلتف حولة العامة والخاصة، وهو ما عبر عنه كاتب أخر بلفظة "مُسَوّغ قيام الدولة"، ذلك أن الاحتلال الصليبي للسواحل المغربية قد أحدث صدى عميق الأثر في نفوس العامة (أبو إدريس، 2012)، فقامت الدعوات إلى الجهاد والتحريض لطرد المحتلين، ومن ثم كان التطلع إلى قيادة مخلصة منظمة تصد الخطر الأجنبي أمرا ملحقا وضرورة أكيدة (الأمين، 1999).

اهتمت الدولتان الوطاسية والسعدية بتكوين ما عرف فيما بعد بالأسر الجهادية، ودعمها بالمال والسلاح، غير أنه وفي فترات الضعف الوطاسي أصبحت تلك الأسر شبه مستقبلة تدير شؤونها بما يتوافق مع مصالحها الخاصة بغض النظر عن الموقف الرسمي في العاصمة الوطاسية فاس، ولقد ساعدت ظروف الدعوة والجهاد لقتال المحتلين على تقوية هذه الوحدات السياسية في شمال المغرب، وفي المقابل فإن ضعف الحكم الوطاسي في فاس قد دفع بعض الولاة في المناطق البعيدة إلى محاولة الاستقلال عن العاصمة مثل ما حصل في دبدو ومراكش(كريم، 2006).

رسمت أسرة المنظري اسمها في الذاكرة الجماعية والتراث الشعبي المغربي في مدينة تطوان، حتى نسبت هذه المدينة إلى مؤسسها الأول، كما نسبت مدينة شفشاون إلى مؤسسها علي بن راشد، وتنته المسيرة النضالية لمدينة تطوان بعد آل المنظري، ولكنها عرفت مسارا آخر في الجهاد وأسرا أخرى نالت الْمُقَدَّمِيَّةَ وأبلت البلاء الحسن ضد النصارى، وساهمت في المشهد السياسي للمغرب السعدي في القرن 17م، وعلى سبيل

* تجدر الإشارة إلى أن الكثير من الباحثين المعاصرين خالفوا عبد الله كنون في هذه القضية.

المثال نذكر مقدمي أسرة أبي الليف ومقدمي أسرة النقسيس في القرن 17م، وكذا مقدمي أسرة الريفي في القرن 18م.

المراجع

1. حركات، إبراهيم، 1998. المغرب عبر التاريخ من بداية المرنيين إلى نهاية السعديين، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، مج2.
2. الكريم، عبد الكريم، 2006. المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط.
3. بن خروف، عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ج1.
4. الزياتي، أبو القاسم، 2008. تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تحقيق رشيد الزاوية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
5. دي طوريس، دييغو، 1988. تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للنشر والتوزيع والترجمة، الدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء.
6. علي البدوي، يوسف، 2010. عصر الدويلات الإسلامية في المشرق والمغرب من الميلاد إلى السقوط، ط1، دار الأصالة، الجزائر.
7. مجهول، 1994. تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق عبد الرحيم بن حادة، ط1، عيون المقالات، مراكش.
8. الإفراني، محمد الصغير، 1988. نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، اعتنى بنصه السيد هوداس، نشره السيد بردين، أنجيه، فرنسا.
9. السملالي، عباس بن إبراهيم، 1983. الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، المكتبة الملكية، الرباط.
10. مقلد الغنيمي، عبد الفتاح، 1994. مرجع موسوعة تاريخ المغرب العربي، ط1، مكتبة مديولي، القاهرة، ج6.
11. اليوبي، الحسن، 1998. الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية،
12. الأمين حسين، 1999. "الدولة السعدية والمورسكيين"، مجلة المناهل، العدد الخامس عشر، السنة، الرابعة.

13. السعود عبد العزيز، 2007. تطوان في القرن الثامن عشر (السلطة- المجتمع- الدين)، ط1، مطبعة الخليج العربي، تطوان،

14. كاربخال مرمول، 1989. إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد نزيبر وأخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، ج2.

15. الرهوني، 2001. عمدة الراوين في أخبار تطاوين، ط2، منشورات جمعية تطوان، أسمير، تطوان،ج1.

16. محمد رزوق، 1998. الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 17م، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.

17. الذهبي، نفيسة ، "السيدة أو الست الحرة حاكمة تطوان 948ه/1541م"، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، العدد44.

18. الأمين السيد الحسن، 1999. "الدولة السعدية"، مجلة المنهاج، العدد 15، بيروت.

19. أبو إدريس إدريس، 2012. الثابت والمتغير في بنية الدولة المغربية، المتقي برينتر، المحمدية، المغرب، ج2.

20. كنون عبد الله، عبد الله كنون، 1962. النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2.

21. التامنارتي عبد الرحمن، 2007. الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية، بيروت.

22. المريني عبد الحق، 1997. "أصداء معركة وادي المخازن في الشعر المغربي"، مجلة التاريخ العربي، العدد3.

23. مبرك فيصل، 2017. الواقع السياسي في المغرب الأقصى وأثره في سقوط الدولة السعدية (1022ه- 1070ه /1613- 1659م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 02.

24. بن محمود، حسين. صهيل الجياد في جمع مصادر الجهاد، دار الجبهة للنشر والتوزيع، د.م، 1482ه.

25. Berthier, Pierre, 1985 .La bataille de l'Oued El-Makhzen, dite bataille des trois rois (4 Aout 1578), Centre National de la Recherche Scientifique, Paris.